

## بلاغة الصورة الاستعارية في الكلام النبوي

محمد إبراهيم خليفة شوشتری

أستاذ مشارك بجامعة الشهيد بهشتی

علي أكبر نورسیده\*

أستاذ مساعد بجامعة الشهيد بهشتی

(۲۳۹ - ۲۶۰)

تاریخ الاستلام: ۹۱/۱۰/۲۵؛ تاریخ القبول: ۹۲/۱۲/۱۴

### الملخص

كان رسول الله (ص) رأس الفصاحة، وجمع البلاغة، و ذروة البيان وكان يخاطب العرب بلهجاتهم على اختلاف قبائلهم. فقد قام الكاتبان لأداء حق الكلام في هذا المقال بدراسة الاستعارة في كلام النبي المرسل (ص) لتبيين نبذة من بلاغته و فصاحته. هذا المقال يلقي الضوء على فن الاستعارة و مظاهرها في الكلام النبوي. والطريق في هذا العمل هو الإفصاح عن البيان النبوي عبر تقديم الأمثلة المتعددة في الاستعارة، والعرض المفصل لفن الاستعارة، وفصولها المتنوعة، وظهورها عند أفضل من نطق بالضاد. وقد اعتمدنا عددا من المصادر البلاغية خلال الحديث عن بعض فنون الاستعارة، و ذلك أملاً أن يأخذ هذا المقال مكانه بين مراجع البيان النبوي الذي تناثر الحديث عنه في بطون الكتب القديمة. فما حصل عليه هو إثبات سيادة النبي (ص) في البيان بشكل تطبيقي عملي وإظهار هذا الأمر.

**الكلمات الدلالية:** الاستعارة، أقسام الاستعارة، البيان النبوي (ص)، مظاهر الاستعارة.

### المقدمة

كانت بلاغة النبي(ص) مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش ومحل الإعجاب من كل من سمعه وأنصت إلى ألفاظه وأصغى إلى معانيه، تطلّ منها أروع الحكم وتنبجس من خلالها أجمع الأمثال. إنّ أحاديث رسول الله(ص) لم تقف عند حدود ما تعارف عليه معاصروه - وهم من صفوة البلغاء وزبدة الفصحاء - وإنما امتدّت على مساحة الأرض والزمان كنزاً ذاخراً للبلاغة، ومعيناً لا ينضب من البيان. حين نتحدث عن الصور البيانية في أدب النبي(ص)، إنّما نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوي والذي جاء على أكمل وجهه، وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب في العربية. لن نرسل القول دون دليل، فإنّ المستمع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إليه النفوس من القول، ولما فطر عليه(ص) من معرفة عناصر التأثير في البيان، وأوجه الجمال في اللسان، فجاء حديثه من البلاغة العالمية في موضع تتطلّع نحوه الأبصار، وتتقاصر دونه الأعناق.

هناك دراسات متعددة عن البلاغة النبوية قد ظهرت على يد علماء البلاغة قديماً وحديثاً، فيمكن الإشارة إلى: "الجاحظ" (ت ۲۵۵هـ)؛ الذي أتى في كتابه "البيان و التبيين" بنماذج من أحاديثه(ص)، وقارن بينها وبين أقوال بعض الشعراء، مقرّراً من خلال ذلك فضل كلامه(ص) على كلام غيره من البشر. وكثيراً ما يورد الأحاديث دون أن يعلّق عليها، ودون أن يشير إلى أنّ الاستعارة هادفة. وقد انتقده أحد الباحثين لإيراد بعض الأحاديث الموضوعية، وقال: «وقد لاحظت أنّ عدداً من هذه الأحاديث غير صحيحة، بل قد ذكر العلماء أنّ بعضها من الموضوعات». (الصباغ، ۱۹۸۳م: ۱۸) هذا ممّا يؤخذ على الجاحظ، وعلى عدد من علماء التفسير والدين والأدب الذين ذكروا بعض الأحاديث الموضوعية في كتبهم، دون أن يتثبتوا من صحتها.

و"الشّريف الرّضي" (ت ۴۰۶هـ)؛ الذي يعدّ كتابه (المجازات النبوية) محاولة رائدة لدراسة الأحاديث النبوية من الوجهة البيانية، ويمتاز بسهولة العبارة، والإيجاز، فقد استعمل بعض المصطلحات البيانية مثل: التشبيه والمجاز، والاستعارة، والكناية دون التعرض لما يدخل تحت كلّ مصطلح من المصطلحات السابقة من أقسام، وكان يستحسن بعض الأنواع البيانية مثل الاستعارة، فيقول عند استعراضها: «ومن ذلك قوله عليه وآله الصلاة والسلام: في حديث يذكر فيه ظروف الساعة: «فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقْيُّمُ الْأَرْضِ أَفْلاذَ كَبِدِهَا» وهذه

من الاستعارة العجيبة؛ لأنه عليه وآله الصلاة والسلام شبه الكنوز التي استودعتها بطون الأرض بأفلاذ الكبد، وهي شعبيها وقطعها؛ لأنّ شعب الكبد من شرائف الأعضاء الرئيسة، فذلك الكنوز من جواهر الأرض النفيسة، ولما شبهها عليه وآله الصلاة والسلام بأفلاذ الكبد من الوجه الذي ذكرناه، جعل الأرض عند إخراجها كأنّها تقيأت ودسعت<sup>١</sup> بما استودعته منها. « (الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ٢٠٤) وخلاصة القول: إنّ الشّريف الرّضي عنى بالجانب البياني في الحديث النبوي من ناحية المجاز خاصة، ولم يتناول بقية الجوانب البيانية تناولاً واسعاً، كما أنّ المصطلحات البيانية عنده عامة، ومتداخلة أحياناً؛ لأنّ علم البيان لم يدوّن حتّى ذلك الوقت بقواعد منظّمة.

و"ابن رشيق القيرواني" (ت ٤٦٣هـ)؛ الذي استشهد في كتابه "العُمدة" بكلام النبي(ص) على القواعد التي وضعها، ولم يكن يعمد إلى تحليل النصّ ودراسته بيانياً، وإنّما كان كلامه موجزاً، وقد امتدح بيان النبي(ص). وفي بداية كلامه في باب البلاغة بدأ بكلام النبي(ص) ثمّ تى بكلام غيره، ممّا يدلّ على تعظيمه للبيان النبوي قال: «تكلّم رجل عند النبي(ص) فقال له النبي(ص): «كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ؟» فقال: شفتاي وأسناني. فقال له(ص): «إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْإِبْعَاقَ فِي الْكَلَامِ، فَتَضَرَّ اللَّهُ رُجُلًا أَوْ جَزَّ فِي كَلَامِهِ وَاقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ». سئل رسول الله(ص) فيم الجمال؟ فقال: «فِي اللَّسَانِ»، يريد البيان». (القيرواني، ١٩٨٣م: ١٦٧/١-١٦٨).

و"عبدالقاهر الجرجاني" (ت ٤٧١هـ)؛ الذي استشهد بالحديث النبوي، قد أتى بأحاديث كثيرة في كتابه "أسرار البلاغة". وأمّا أحاديث كتابه "دلائل الإعجاز" فقليلة. ومن الأحاديث التي أوردها قوله(ص): «النَّاسُ كِابِلُ مَائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهِمْ رَاحِلَةً». وعقب عليه بقوله: «لَا يَدُّ فِيهِ مِنَ الْمَحَافِظَةِ عَلَى ذِكْرِ الْمَشْبِهِ بِهِ الَّذِي هُوَ الْإِبِلُ، فَلَوْ قَلْتُ: (النَّاسُ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً) أَوْ (النَّاسُ لَا تَجِدُ فِي النَّاسِ رَاحِلَةً) كَانَ ظَاهِرَ التَّعَسُّفِ». (الجرجاني، ١٤٠٣هـ: ١٠٠-١٠١) والخلاصة: إنّ عبد القاهر كان يستشهد بالحديث النبوي في تقريره للقواعد البلاغية التي وضعها، وقد كانت شواهد من الشعر أكثر من شواهد من الحديث.

و"ضياءالدين بن الأثير" (ت ٦٢٢هـ)؛ الذي استشهد في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" بالحديث النبوي كثيراً، واعتبر أنّ الحديث النبوي هو آلة من آلات علم البيان. وهي عنده ثمان، فقال: «النوع السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي(ص) والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال». (ابن الأثير، د.ت: ٤٠/٢-٤١)

فقد قسّم التشبيه إلى أربعة أقسام، ومنها تشبيه مركب بمركب، وقال فيه: «وأما القسم الثاني وهو تشبيه المركب بالمركب، فمما جاء منه مضمّر الأداة ما يروى عن النبي (ص) في حديث يشتمل على فضائل أعمال متعددة، ولا حاجة إلى إيراده ههنا على نصّه، بل نذكر الغرض منه، وهو أنّه قال له رسول الله (ص): «أَمْسِكْ عَلَيْكَ هَذَا» وأشار إلى لسانه، فقيل له: «أَوْ نَحْنُ مُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» فقال (ص): «تَكَلَّمْتُ أُمُّكَ يَا رَجُلُ! وَ هَلْ يُكَبُّ النَّاسَ عَلَى مَتَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ». فقوله (ص) «حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» من تشبيه المركب بالمركب، فإنّه (ص) شبه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض». (ابن الأثير، ٤٠/٢-٤١) وقد ذهب محمد الصباغ إلى أنّ ابن الأثير «من أكثر المتقدمين ضرباً للأمثلة من الحديث في كتابه المذكور». (الصباغ، ١٩٨٣: ٥٥)

و"يحيى بن حمزة العلوي" (ت ٧٤٥هـ)؛ أشار العلوي إلى فضيلة البيان، وقال: الفضيلة الأولى: أنّ الرسول (ص) مع ما أعطاه الله من العلوم الدينية، وخصّه بالحكم والآداب الدنيوية فلم يفتخر بشيء من ذلك، فلم يقل (أنا أفقه الناس) ولا (أنا أعلم الخلق بالحساب والطب)، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة، فقال (ص): «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالصَّادِ». (العلوي؛ ١٩٩٥ م: ٣٢-٣٣) وقد أتى العلوي بطائفة من الأحاديث النبوية التي استشهد بها على القواعد البلاغية التي وضعها في كتابه، كما تحدّث عن فضيلة البيان النبوي، فقال: «فإنّ كلامه (ص) وإن كان نازلاً عن فصاحة القرآن وبلاغته، في الطبقة العليا حيث لا يدانيه كلام، ولا يقاربه وإن انتظم أيّ انتظام». (المصدر نفسه: ١٦٠) نفترض أن تكون الاستعارات المستخدمة في البيان النبوي الشريف هادفة لترسيخ الكلام وإلقائه في بال المتلقين من العرب والمسلمين؛ عسى أن يقع الكلام موضعاً أفضل من الكلام المعتاد. وما قمنا به هو دراسة مختصرة لصور الاستعارة في الكلام النبوي حتى نقدّم على قدر استطاعتنا نبذة من البلاغة النبوية. وقد التزمنا بجمع الشواهد البيانية، وتحققنا من صحة النصوص، ثم قسّمناها إلى موضوعات، ودرسنا كل موضوع، وقد ذكرنا نصّ الأحاديث النبوية أو بعض ما يتعلّق منها بالفن الاستعاري، وذكرنا مواضع الأحاديث في "مشكاة المصابيح" وعرضنا الأحاديث مرتبة حسب ترتيبها فيما يتعلّق بالجانب البياني، فقد عرضنا كلامه (ص)، وقمنا بشرح بعض المفردات اللغوية الغريبة، وأحلنا بعض الشواهد

الاستعارية إلى أماكنها في الدواوين الشعرية، أو الكتب البلاغية، ما أمكن ذلك. ثمّ رجعنا إلى عدد من المصادر البلاغية خلال الحديث عن بعض فنون البيان والاستعارة. وقد قدّمنا نماذج من الاستعارة، أملاً أن يكون هذا المقال مرجعاً في البيان النبوي الذي تنأثر الحديث عنه في بطون الكتب القديمة، بينما استبعد بعض المعاصرين المصطلحات البيانية خلال دراستهم للبيان العربي عموماً، ومنه البيان النبوي. فنحن في هذه الدراسة نستعرض تعريفاً للاستعارة عند البلاغيين الجدد والقدامى، ونبرز خطوطها العريضة، ثم نستخرج الشواهد الاستعارية في الكلام النبوي، ونشرحها وفقاً لما وجدنا فيها من الصور البلاغية. هذه هي أبرز الأفكار العامة في منهج المقالة.

نظراً إلى ما أشرنا إليه تتطلب القضية هذه بحثاً دقيقاً في الصورة الاستعارية في الكلام النبوي لعرض بلاغته المنبعثة من القرآن والوحي. وضرورة هذا البحث ترجع إلى فقد بحث يعطي القارئ الكريم صورة واضحة عن الاستعارة في الحديث الشريف، ويجب عن السؤال التالي:

هل كان الرسول الأعظم(ص) ينطق بالاستعارة لأجل البلاغة فقط، أو أنّ استعاراته(ص) كانت هادفة، يستخدمها للأهداف السامية كالموعظة الحسنة، وتقوية العقيدة الإسلامية. ونودّ الإشارة إلى أنّ سبب أخذنا الأحاديث الممتخبة لهذا المقال من كتاب(مشكاة المصابيح) للخطيب التبريزي هو أنّ هذا الكتاب قد جمع الأحاديث المشتملة على الموارد البلاغية كالاستعارة مثلاً. ولا شك أنّ الخطيب التبريزي هو عالم وراوٍ، فلا يروي إلاّ ما صحّ من الأحاديث، علماً بأننا قد رجعنا إلى كتب الحديث المعتمدة للتثبيت من صحّة الأحاديث المذكورة.

### الاستعارة

تصدر الاستعارة بشكل كبير بنية الكلام الإنساني، إذ تعدّ عاملاً رئيساً في الحفز والحثّ، و أداة تعبيرية، ومصدراً للترادف وتعدد المعنى ومتنفساً للعواطف والمشاعر الانفعالية الحادة، و وسيلة لملء الفراغات في المصطلحات. إنّ الاستعارة لا بدّ أن تتحوّل إلى شكل يماثل التشبيه حتّى يتمّ فهمها. وهي التي تعطي قبل كلّ شيء الجلاء والمتعة وجوداً غريباً، ويجب أن تكون مناسبة وغير بعيدة عن الأذهان. ويجدر الذكر

أن الانحراف عن التعبير هو مظهر ثانوي للاستعارة، و المظهر الأساسي هو أن الاستعارة تنتج أنواعاً من الاستعمالات اللغوية التي تدعو القارئ لاكتشاف أنواع معينة من تراكب الأفكار وتداعيتها، وهذه هي قلب اللغة الاستعارية. «إن العامل في تأثير الاستعارة هو المسافة بين المشبه والمشبه به، أو كما يقول سايس: زاوية الخيال». (أبو العدوس، ١٩٩٧م: ١١).

الاستعارة وفقاً للنظرية الاستبدالية «هي علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلك شأن التشبيه ولكنها تمتاز عنه بأنها تعتمد على الاستبدال، أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة، أي إنَّ المعنى لا يقدم فيها بطريقة مباشرة، بل يقارن أو يستبدل بغيره على أساس من التشابه. ووفقاً للنظرية السياقية؛ الاستعارة عملية خلق جديد في اللغة، ولغة داخل اللغة، فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات. ووفقاً للنظرية التفاعلية هي تتجاوز الاقتصار على كلمة واحدة، و تحصل من التفاعل أو التوتر بين بؤرة المجاز، والإطار المحيط بها، وتبين هذه النظرية أن للاستعارة هدفاً جمالياً وتشخيصياً وتجسدياً وتخيلياً وعاطفياً». (المصدر نفسه: ٧-٨).

والاستعارة إحدى أنواع المجاز، وهي «بجاز تكون علاقته المشابهة، أي قصد أن الإطلاق بسبب المشابهة». (التفتازاني، ١٤٢٥هـ: ٣٤١) فقد عرفه السكاكي بقوله: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به». (السكاكي، د.ت: ١٧٤)

#### مظاهر الاستعارات في الكلام النبوي:

##### الاستعارة التصريحية

##### أ- المجردة

الاستعارة التصريحية المجردة هي ما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبه. وهذا ما ذهب إليه السكاكي عند تعريفه للاستعارة المصريح بها، حيث قال: «والمراد بالأول- الاستعارة المصريح بها- هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به». (المصدر نفسه: ١٧٤)

ومن شواهد الاستعارة التصريحية ما يلي:

١- قال النبي(ص) لرجلٍ: «تَكَلِّتُكَ أُمُّكَ! وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَيَّ وَجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَيَّ مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٦/١)

الحصائد: جمع الحصيدَة وهي ما يحصد من الزرع، شبه اللسان وما يقطع به من القول بحدّ المنجل وما يقطع به من النبات. قال الطيّبيّ مبيّناً الاستعارة في كلمة "الحصائد" وقرينة هذه الاستعارة: «الحصائد»: جمع حصيدَة، فعيلة بمعنى مفعولة، من حصد، إذا قطع الزرع وهذا من إضافة اسم المفعول إلى فاعله، أي: محصودات الألسنة، فشبه ما تكلم به اللسان بالزرع المحصود بالمنجل، فكما أن المنجل يقطع ولا يميّز بين الرطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكلّ نوع من الكلام القبيح والحسن، ثم حذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة المصرحة، وجعل الإضافة قرينة لها». (الطيبي، ١٤٠٥هـ: ٤٨٨/٢)

لعلّ سائلا يسأل: ما المناسبة أو ما وجه الشبه بين اللسان والمنجل؟ لأنّ الظاهر أنّ هذا التشبيه ليس تشبيها حسنا لغموض وجه شبهه. والجواب كما يبدو أنّ في تشبيه اللسان بالمنجل حكمة نبوية شريفة، وهي أنّه لا يحصد بالمنجل إلّا الزرع الذي نضج وآن حصاده، وحن الانتفاع بثمره، فإذا حصد الزرع قبل نضجه فإنّ صاحبه سيلحقه الضرر، وأمّا إذا حصد بعد نضجه فإنّ صاحبه سينتفع وينفع الناس به؛ وكذلك الكلام إذا قيل قبل نضجه بالفكر فهو غير ناضج ويعود على صاحبه بالضرر، وأمّا إذا قيل بعد هضمه بالتفكير والتعقل والاطمئنان من نفعه فإنّه سيعود على قائله بالنفع وعلى الآخرين بالفائدة. وهذا يعني أنّ الرسول الأعظم(ص) يأمرنا بهذا الحديث البليغ أن نفكر ثمّ نتكلم، لا أن نتكلم ثمّ نفكر.

٢- قال رسول الله(ص): «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٦٣/١)

قال الطيّبيّ: «في بيضاء استعارة لسطوع براهين هذه الملة المستقيمة، ووضوح دلائلها القويمة، مما له بياض ونقاوة». (الطيبي، ١٤٠٥هـ: ٦٤٦/٢)

الاستعارة في الحديث الشريف هي مصرحة، والمستعار له هو الشريعة الإسلامية ذات البراهين الساطعة، والمستعار منه هو الشيء الأبيض، والجامع هو الوضوح. واستعارة البيضاء وهي من المعاني الانتزاعية للبراهين أمر لتقريب المعنى إلى ذهن المتلقي، لأنّ البراهين لا تتمتع بلون ولا تسطع عادة، بل الأثر الغائي منها يسطع الطريق

ويظهرها أمام المرء، ويمهّد السبيل له ويخرجه من الظلمات إلى النور، كما يخرج الضوء والشيء الساطع المرء من الجهل إلى العلم. استعار النبي(ص) في هذا الحديث الشريف اللون لبيان ما ينوي من المعنى، فهو حسب الاستعارة الجديدة استخدم الاستعارة "الاستبدالية" لمجرد وضع كلمة بدل كلمة أخرى؛ والكلمة الأولى و البديل هو البيضاء، و المبدل منه الشريعة الإسلامية ذات البراهين الساطعة، فجاء اللون بدلا عن صفة المبدل منه، و المستعار له و هو الشريعة، لأنه لا يمكن أن تستعار البيضاء للشريعة مباشرة.

#### ب- التبعية

الاستعارة التبعية هي التي يكون فيها اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسماً مشتقاً، أو فعلاً، أو حرفاً. فقد عرفها السكاكي بقوله: «هي ما تقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال، والصفات المشتقة منها، والحروف بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه، والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفاً، والأفعال والصفات المشتقة منها مصادرها وفي الحروف متعلقات معانيها، فتقع، الاستعارة هناك ثم تسري فيها». (السكاكي، د.ت: ١٨٠) ومن تعريف السكاكي اقتبس البلاغيون تعريفهم لهذه الاستعارة. (الخطيب القزويني، التخليص، د.ت: ٣١٤؛ والإيضاح، ١٤٠٣: ٢ / ٣٢٩؛ الجرجاني، ١٩٨٢م: ٢٢١) ومن أمثلتها في الكلام النبوي ما يلي:

١- قال رسول الله(ص): «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ». (الخطيب التريزي، ١٤٠٥هـ: ١٤٠١/٣)

حول قوله(ص): «دَبَّ إِلَيْكُمْ» جاء في "النهاية": «نقل الداء من الاجسام إلى المعاني، و من أمر الدنيا إلى أمر الآخرة». (ابن كثير، ١٩٩٥م: ٢ / ١٤٢-١٤٣)

الدبّ يستعمل في الأجسام، فاستعير للسراية على سبيل التبعية، حيث أجريت الاستعارة في المصدر أولاً، ثم اشتق من الدبّ الفعل «دبّ»، فأصبحت الاستعارة التصريحية التبعية؛ أي انتقلت إليكم ونفذ فيكم داء الأمم السالفة، كما تدبّ الدابة على الأرض هوناً دون أن تلفت الأنظار إلى نفسها، هكذا نفذ فيكم مرض الكفر والإلحاد دون أن تكثرثوا لهذا الأمر. استعار النبي(ص) فعل الدابة لأمر آخر ليظهر غفلة المؤمنين بالنسبة لما يجري حولهم من القضايا التي لا يلتفت إليها المؤمنون.



٢- قال النبي(ص): «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٤٠١/٣) قال الشريف الرضي: «إِنَّ الْأَكْلَ هُنَا استعارة لعدم القبول، وَإِنَّ تِلْكَ الْحَسَنَاتِ الصَّادِرَةَ عَنْهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ، وَلَيْسَتْ بِثَابِتَةٍ فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ حَتَّى تَحْبَطَ، كَمَنْ صَلَّى بَدَارَ مَغْصُوبَةٍ، وَلِهَذَا يُحْسِنُ وَجْهَ التَّشْبِيهِ بِالنَّارِ، فَإِنَّ النَّارَ عِنْدَ اشْتِعَالِهَا وَالتَّهَابِهَا لَا تَتْرَكَ مِنَ الْوَقُودِ شَيْئاً إِلَّا أَفْتَنَتْهُ، فَشَبِهَتْ الْأَعْمَالِ الصَّادِرَةَ عَنْهُ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْحَسَدِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ الَّذِي تَشْتَعِلُ فِيهِ النَّارُ فِي الْإِفْنَاءِ وَالْإِعْدَامِ مِبَالِغَةً وَزَجْراً لِلْحَاسِدِ.» (الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ١٥٣)

فالأكل في النار أيضاً استعارة؛ يلاحظ أن الاستعارة في «يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ» تصريحية تبعية، ونحوها في «تَأْكُلُ النَّارُ»، فالمستعار له هو «تمحو» أو «ترفض» المحذوف. وكما أن أكل الشيء يغييه عن النظر هكذا محوه يبعده عن العيون. يشير(ص) إلى أن الحسد يححو حسنات المرء كما تمحو النار الحطب. وبلاغة الاستعارة تكمن في أن قوة الزوال عند الحسد تعادل قوة النار عند الاحتراق. يلاحظ أن استخدام الاستعارة التبعية تظهر استمرار عمل إحماء الحسنات بالنظر إلى معنى الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار في برهة من الزمن. وفي هذا الحديث الشريف باستعارته موعظة حسنة. محاربة صفة الحسد التي يمكن أن يتصف بها كل إنسان، وذلك حفاظاً على الاستفادة من ثواب الأعمال الصالحة الحسنة ولئلا تذهب بعد جهد جهيد هباءً منثوراً. وفي هذا موعظة أي موعظة.

#### الاستعارة الممكنية

هي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه. وهذا المفهوم قريب من كلام فخر الدين الرازي الذي عرف الاستعارة بالكناية بقوله: «هذا إنما يكون إذا لم يصرح بذكر المستعار، بل ذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه». (الرازي، ١٩٨٥م: ١٢٤-١٢٥) ومذهب الجمهور إنما: «لفظ المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف المرموز إليه بإثبات لازمه للمشبه». (البيومي، ١٩٧٢م: ١٨٠-١٨١) يلاحظ أن الجمهور اشترطوا إثبات لازم المشبه به للمشبه، وهذا ما لم يذكره الفخر في تعريفه لهذه الاستعارة. (وقد ذكر الفخر الرازي الاستعارة التخيلية في كتابه "نهاية الإيجاز": ١١٥-١١٦). والاستعارة هذه هي التي يسمي قسم منها في الاستعارة الحديثة بالاستعارة التجسيمية وشرحها كما يلي: يعد الفيلسوف

الإيطالي جيامباتستا الذي عاش في القرن الثامن عشر، من أوائل الذين لاحظوا مثل هذه الاستعارات، وبين أن القسم الأكبر من التعبيرات التي ترجع إلى أشياء غير السحية في اللغة تؤخذ بواسطة التحويل، والانتقال من الجسم الإنساني وأجزائه، ومن الحواس والعواطف الإنسانية، مثال ذلك: «جانب الجبل، وفم النهر، وقلب المدينة، وقلب المشككة، ويد الساعة، وساق الشجرة. وثمة تحولات في الاتجاه المقابل؛ لأن الكثير من أعضاء الإنسان تطبق على الجمادات، نحو: تفاحة آدم، ولسان البحر، وعنق الرجاجة، وطبلة الأذن. وجسم الإنسان مركز قوي للتوسع الاستعاري، إذ يعدّ قطاعاً من القطاعات البارزة التي تنتقل الكلمات منها وإليها، أو هو مركز من الانتشار والحاذبية.» (أبو العدّوس، ١٩٩٧م: ١٧)

ويحوز عند البعض أن تكون بعض صور الاستعارات الممكنية من باب المجاز العقلي أيضاً، وهذا يخالف السكاكي الذي يقول عند خاتمه فصل المجاز العقلي: «هذا كلّ تقرير للكلام في هذا الفصل بحسب رأي الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوي وعقلي، وإلاّ فالذي عندي هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية.» (أبوموسى، د.ت: ٣٠٢) فالسكاكي ينكر المجاز العقلي، ويصنّفه في مبحث الاستعارة بالكناية، بينما يثبت عبد القاهر بين المجاز العقلي والاستعارة الممكنية، ولعلّ سبب ذلك أن الاستعارة الممكنية تلبس بالمجاز العقلي، ولذلك «رأينا السكاكي يدخل صورته في الاستعارة الممكنية.» (السكاكي، د.ت: ١٨٩) كذلك نجد الخطيب- وقد فرق بين المجاز العقلي والاستعارة الممكنية- يعتبر أن الاستعارة الممكنية تشتمل على المجاز العقلي كما يظهر من حديثه في علم البيان. وقد جعلنا الحديث عن الاستعارة الممكنية في ثلاث فقرات نتناول أمثلة من هذه الاستعارة، وأمثلة لالتباسها بالمجاز العقلي، وأمثلة لقرينتها "الاستعارة التخيلية". وهذا أول هذه الفقرات:

#### أ- الاستعارة الممكنية

١- عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله(ص): «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَّرَأُ يُمَيِّتُونَ الصَّلَاةَ- أَوْ قَالَ: يُؤَخَّرُونَ؟» (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٩٠/١) شبه(ص) إضاعة الصلاة وتأخيرها عن وقتها بجيفة ميّت تنفّر عنها الطباع، كما شبه المحافظة عليها وأدائها في وقت اختيارها بذي حياة له نضارة وطراوة في عنفوان شبابه، ثم أخرجها مخرج الاستعارة، وجعل القرينة قوله: «يُمَيِّتُونَ»، لأنه لازم المشبه به. ففيها استعارة ممكنية. فكما لا يفيد الميّت

الآخرين شيئاً ولا يستفيد نفسه، لا تفيد إضاعة الصلاة وتأخيرها صاحبها. وتجدر الإشارة إلى أنّ الصلاة لا تموت بل السميّة هو الذي لا يعتني بالصلاة ويرزبها ولا يؤدّي حقّها.

٢- قال الرسول الأعظم(ص): «فإني أرجو ألاّ يطلع إلينا نقابها». (الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ٣١)

قال رسول الله(ص) هذا الحديث الشريف حين تذاكر الناس عنده أمر مرض الطاعون، وانتشاره في الأمصار والأرياف. وفاعل الفعل (يطلع) ضمير مستتر يعود إلى الطاعون، والنقاب جمع(النقب): الطريق في السجل، والضمير المحرور في (نقابها) يعود إلى المدينة. واستناداً إلى هذا يكون المعنى (إني أرجو أن لا يطوي هذا الجيش طرق المدينة الصعبة فيصل إلينا). أي: إني أرجو أن يرفع الله تعالى هذا المرض فلا يصل إلينا. وفي هذا الحديث الشريف استعارة مكنية: حيث شبه الطاعون بالجيش المغير، ثمّ حذف المشبه به، وذكر لازم من لوازمه، وهو طلوع النقاب، أي: طي الطريق؛ ثمّ نسب هذا اللازم للمشبه، أي نسبة طلوع النقاب للطاعون على سبيل الاستعارة المكنية. وفي هذه النسبة استعارة تخيلية.

#### ب- من صور التباس الاستعارة المكنية بالمجاز العقلي

١- عن أبي ذر قال: كان رسول الله(ص) يقول في صلاته: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعَلَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعَلَّمَ وَأَسْتَغْفِرُ لَكَ لِمَا تَعَلَّمَ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٣٠١/١)

قوله(ص): «لساناً صادقاً»: إسناد (صادقاً) إلى الضمير المجازي، لأن الصدق من صفة صاحبه، فأسند إلى الآلة مبالغة. كما «أسند وضع الأوزار إلى الحرب في قوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] وهو للمحارب». (الزمخشري، ١٤٠٦هـ: ٣١٧/٤) ويجوز أن تكون استعارة مكنية، بأن شبه اللسان بمن ينطق بالصدق لكثرة صدوره عنه، ثمّ أدخل اللسان على سبيل الادعاء مبالغة في جنس المشبه به، وخيّل أنه هو، ثمّ أثبت للمستعار له ما يلازم المشبه به من الصدق، ونسب إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة.

٢- قال رسول الله(ص): «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحُّ هَالِعٍ، وَجُبْنٌ خَالِعٍ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٥٨٦/١)

قال التوربشيتي: «الشحّ بخل مع الحرص، فهو أبلغ في المنع من البخل، فالبخل يستعمل في الضنة بالمال، والشح في سائر ما تمتنع النفس عن الاسترسال فيه من بذل مال أو معروف أو طاعة. والهلع: أفحش الجزع، وهلع - بالكسر - فهو هلع وهلوع، ومعناه، أنه يجزع في شحّه أشدّ الجزع على استخراج الحق منه». (الزبخشري، ١٤٠٦ هـ: ٤/٤١٢) وقوله: «شحُّ هَالَعٍ»، أي: ذو هلع، كما يقال: يوم عاصف، وليل نائم، ويحتمل أيضاً أن يقول: «هَالَعٌ» لِمَكَانٍ «خَالَعٌ» للازدواج. ويحتمل أن يحمل على الإسناد المجازي، فيسند الشحّ إلى صاحبه مبالغة، وعلى الاستعارة الممكنية، بأن يشبه الشحّ بإنسان، ثم يوصف بما يلازم الإنسان من الهلع، والهلع ما فسره الله تعالى، وهو: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَثُوعًا﴾ [المعارج: ٢١، ٢٠].

حول قوله (ص): «جُبِينٌ خَالَعٌ»، جاء في (النهاية): «أي: شديد كآئه يخلع فؤاده من شدة خوفه، وهو مجاز في الخلع؛ والمراد به: ما يعرض من نوازع الأفكار وضعف القلب عند الخوف». (ابن كثير، ١٩٩٥ م: ٢/٦٥) وفيه الاستعارة بالكناية حيث شبه الجبن بالمرء الذي يخلع، ثم حذف المشبه به وأشار إليه بلازمه وهو الخالع منسوباً إلى المشبه به.

### ج- الاستعارة التخيلية

الاستعارة التخيلية هي إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه، وتكون قرينة للاستعارة الممكنية. وهذا ما عليه جمهور البلاغيين، فهما متلازمان، لا توجد إحداهما بدون أخرى، إذ لا بدّ للاستعارة من قرينة. قال الخطيب القزويني: «قد يضمّر التشبيه في النفس، فلا يصرّح بشيء من أركانه سوى المشبه، ويدلّ عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، فيسمّى التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنياً عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية». (الخطيب القزويني، التخليص، د.ت: ٣٢٦؛ الإيضاح، ١٤٠٣: ٢/٤٤٤) وقد علّق السبكي على كلام الخطيب بقوله: «وعلم منه أن الاستعارة بالكناية لا توجد دون الاستعارة التخيلية، وأمّا التخليص (عروس الأفراح، د.ت: ٤/١٥٣-١٥٤) وقال التفتازاني: «الاستعارة بالكناية والاستعارة التخيلية فعلاّن من أفعال المتكلم متلازمان، إذ التخيلية يجب أن تكون قرينة للممكنية البتة، والممكنية يجب أن تكون قرينتها تخيلية البتة». (التفتازاني، ١٤٢٥ هـ: ١٥٦-١٥٧)

وفي ما يلي شواهد للاستعارة التخيلية في الكلام النبوي:

١- قال رسول الله (ص): «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٠/١-١١) «حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»: استعارة، شبهت شدة رغبة المؤمن في إيمانه بشيء ذي حلاوة، وأثبت للإيمان لازم ذلك الشيء، وأضيف له على التخيلية. ليس للإيمان حلاوة، بل الحلاوة تكمن وراء الإيمان ونتيجته، المستعار منه وهو الشيء الحلو والمستعار له وهو الإيمان يشتركان في صفة الحلاوة لكنها حقيقي في الشيء الحلو ومعنوي وغير محسوس في الإيمان.

٢- قال (ص) لأبي ذر: «... أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ». (المصدر نفسه، ١٤٠٥هـ: ١٦/١) قوله (ص): «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ»: أصله تذهب الخطيئة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ثم في الدرجة الثانية تمحو الخطيئة لقوله (ص) لأبي ذر: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٤٠٩/٣)، فلما وضع الخطيئة موضع النار على الاستعارة الممكنة أثبت لها على سبيل الاستعارة التخيلية ما يلزم النار من الإطفاء ليكون قرينة مانعة لها من إرادة الحقيقة من الخطيئة.

#### الاستعارة المرشحة

هي التي ذكر معها ما يلائم المستعار منه، وهذا هو الذي يقوي ويرشح الاستعارة والمعنى المنطوي فيها. ومن أمثلة هذه الاستعارة في الكلام النبوي ما يلي:

١- قال رسول الله (ص): «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ الرَّحْمَةَ حَتَّىٰ يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ اغْتَمَسَ فِيهَا». (المصدر نفسه: ١/٤٩٧) قوله (ص): «يَخُوضُ الرَّحْمَةَ» شبه الرحمة بالماء، إما في الطهارة، أو في الشيوخ والشمول، ثم نسب إليها ما هو منسوب إلى المشبه به، من الخوض، ثم عقب الاستعارة بالانغماس ترشيحاً. تعتبر الغمس من ملائم الخوض، كآته (ص) يريد أن يشير إلى أن الرحمة الإلهية تشمل المرء تماماً حين مرضه والمرض هذا يجلب له الرحمة الإلهية و من مظاهر هذه الرحمة هو الغفران. كما يقال إن كل مرض يصاب به مؤمن يؤدي إلى غفران خطاياها، إن كانت الخطايا مما تغفر.

٢- كان للنبي(ص) حَادٍ يُقال له: أَنْجَشْتُ، وكان حَسَنَ الصَّوْتِ. فقال له النبي(ص): «رُوَيْدُكَ يَا أَنْجَشْتُ، لَا تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ». قال قتادة: «يعني ضعفة النساء» (المصدر نفسه: ١٣٥٥/٣)

قال ابن الأثير: «قوله: (القوارير) أراد به النساء، شَبَّهَهُنَّ بالقوارير من الزجاج، لأنه يسرع إليها الكسر، وكان أُنْجَشْتُ يحدو وينشد القريض والرجز. فلم يأمن أن يصيبهن، أو يقع في قلوبهن حداؤه، فأمر بالكف عن ذلك. وفي المثل: «الغناء رُقِيَةُ الرِّثَاءِ». وقيل: أراد أن الإبل إذا سمعت الحداة أسرع في المشي واشتدت به، فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك، لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة. وواحدة القوارير: فارورة، سميت بها لاستقرار الشراب فيها». (ابن الأثير، د.ت: ٣٩/٤) فالقوارير: استعارة، لأن المشبه أي النساء، غير مذكور، والقرينة حالية لا مقالية، والكسر ترشيح لها.

#### الاستعارة المجردة

التجريد عند البلاغيين هو ذكر ما يلائم المستعار له، وهذه الاستعارة قيمتها أقل من الترشيحية. (الرازي، ١٩٨٥م: ١٢٤) وقد وجدنا التجريد في مواضع قليلة في الحديث النبوي منها:

- عن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله(ص) يلوي ناصية فرسٍ بإصبعه، وهو يقول: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١١٣٦/٢؛ الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ٤٩)

حول قوله(ص): (مَعْقُودٌ) : جاء في "النهاية": «أي: ملازم لها كأنه معقود فيها. ويجوز أن يكون الخير المفسر بالأجر والغنيمة استعارة مكنية، شَبَّهَهُ لظهوره وملازمته بشيء محسوس معقود بخيل على مكان رفيع، ليكون منظوراً للناس ملازماً لنظره، فنسب الخير إلى لازم المشبه به ، و ذكر الناصية تجريداً للاستعارة.» (ابن الأثير، ١٣٨٣هـ: ٢٧١/٣)

#### الاستعارة اللفظية

قد أشار الشيخ عبد القاهر إلى الاستعارة اللفظية عند ذكره الاستعارة غير المفيدة. (الجرحاني، ١٤٠٣هـ: ٢٩ و ٣٤) فذكر أمثلة لها وسمّاها استعارة من طريق اللفظ، وأشار إلى أنها تجري بين الأسماء التي تتحد أجناس مسمّياتها كالشفة للإنسان، والجحفة للفرس،

والمشفر للبعير، ونبّه إلى أن هذه الدقائق في الفروق قد تكون معتبرة في هذا التصرف فتكون استعارة مفيدة كإطلاق المشفر على الشفة الغليظة في مقام الدّم، ثم رجع عنه في آخر كتاب "أسرار البلاغة" فذكر أنه يضمن بإطلاق اسم الاستعارة على هذا النوع قائلاً: «واعلم أنّ الواجب كان أن لا أعدّ وضع الشفة موضع الجحفة، والجحفة في مكان المشفر، ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة، وأضنّ باسمها أن يقع عليه، ولكنّي رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات، وعدّوه معدّها، فكرهت التشداد في الخلاف، واعتدلت به في الجملة، ونبّهت على ضعف أمره بأن سمّيته "استعارة غير مفيدة"». (المصدر نفسه، ١٤٠٣هـ: ٣٧٣) ثم جاء الزمخشري فذكر هذه الاستعارة، ونبّه إلى «أنّها تدور بين أسماء الأجناس، ولم يصف إليها شيئاً، لأنّ صورها أثر تصرف لفظي، ليس وراءه اعتبارات بلاغية يراعيها المتكلم، فهي أشبه بالعمل اللغوي منه بالعمل الأدبي». (أبو موسى، د.ت: ٤٢٥) وقد وردت الاستعارات اللفظية في مواضع منها:

- قال رسول الله (ص): «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ! لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا، وَلَا وَفْرَيْنِ شَاةٍ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٥٩٣/١) الفرسن: عظم قليل اللحم، وهو خفّ البعير كالحافر للدابة، وقد يستعار للشاة، فيقال: فرسن شاة. والذي للشاة هو الظلف. ففيها الاستعارة اللفظية. يمكن أنّه (ص) قد شبّه الشاة بالبعير في هذا الموضوع، حتى يشير إلى أهمية عدم الإهانة ولو كانت قليلاً لا تعدّ. الجدير بالذكر أنّه تعدّ مملكة الحيوانات مصدر هامّ من مصادر الاستعارة، وبعض هذه الاستعارات ينطبق على النباتات، أو الأشياء عديمة الحسّ والوعي. وعلى الرغم من أنّ الصور الحيوانية، من أقدم العناصر في الأسلوب الأدبي، إلّا أنّها لم تفقد شيئاً من قوتها.

#### الاستعارة التهكمية

مفهوم الاستعارة التهكمية هو ما نزل فيها التّضاد منزلة التناسب لأجل التهكم والاستهزاء، وقد أطلق الزمخشري على هذا النوع اسم "العكس في الكلام". (أبو موسى، د.ت: ٤٢٦) وهي إحدى صور الاستعارة العنادية عند البلاغيين، ومن أمثلة الاستعارة التهكمية في الكلام النبوي ما يلي:

١- جاء في حديث رواه ابن عباس عنه (ص)، وهو يتحدث عن كيفية قبض الأرواح: «فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءَ قَالَ: أَخْرِجِي أَيَّتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةَ! كَأَنَّ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرِجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١/٥١٠-٥١١) قوله (ص): «وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ» وضع موضع "أُنْذِرِي" على سبيل الاستعارة التهكمية، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] حيث استعير (بشّرهم) لـ(أنذرهم). لأن تصرفات الكافر لا تليق البشارة ولو أبشرت قد بشرت على سبيل التهكم والسخرية.

٢- قال النبي (ص): «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبَعٍ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٢/٧٦٢؛ الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ١٦٣)

حول قوله (ص): «مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي» قال القاضي: «الهداية الإرشاد إلى الشيء والدلالة عليه، ثم اتسع فيه فاستعمل بمعنى الإدناء من الشيء والإيصال إليه، والطبع بالتحريك العيب، و أصله الدنس الذي يعرض لل سيف؛ والمعنى: أعوذ بالله من طمع يسوقني إلى شين في الدين و ازدراء بالمرءة». (القاري، ١٣٩٠هـ: ٥/٢٣٣) وقال الطيبي: «الهداية هنا بمعنى الدلالة الموصلة إلى البغية وإرادة على سبيل التمثيل، لأن الطبع الذي هو بمعنى الرين مسبب عن كسب الآثام. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]». (الطيبي، ١٤٠٥هـ: ٦/١٩٢)

فالهداية تستعمل عادة لشيء حسن، لكن النبي (ص) استعمله في الشر للتهكم والسخرية من الطمّاعين. فاستعمل الهدى فيه على سبيل الاستعارة تمكماً.

٣- قال (ص) مخاطباً قتلى المشركين يوم بدر، وكانوا قد قذفوا في بئر من آبار بدر: «يَا فُلَانُ بِنَ فُلَانٍ! وَيَا فُلَانُ بِنَ فُلَانٍ! أَيَسْرُكُمُ أَنْكُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٢/١١٦٠-١١٦١)

حول قوله (ص): «أَيَسْرُكُمُ أَنْكُمْ» قال صاحب مرقاة المفاتيح: أي: هل تتمنون أن تكونوا مسلمين بعدما وصلتم إلى عذاب الله». (القاري، ١٣٩٠: ٨/١٠)

ينبغي أن يفسر هذا بما يترتب عليه قوله: «فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا»، لأنه كالتعليل له، فالمسرة ههنا مستعارة لضدها من الحزن والكآبة تمكماً وسخرية. فالمعنى: أتحننون وتحسرون على ما فاتكم من طاعة الله ورسوله أم لا؟ وتذكرون قولنا لكم: إن الله ربنا حقاً، وسيظهر دينه على الدين كله، وينصر أوليائه، ويخذل أعداءه؟



### الاستعارة التمثيلية

الاستعارة التمثيلية تكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، فإذا اشتهرت الاستعارة التمثيلية سميت مثلاً. (المراغي، ١٩٨٤م: ٢٦٦) وربما أطلق عليها لفظ التمثيل، وقد ذكر الخطيب القزويني: أن هذا المجاز يسمّى: «التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد تسمّى التمثيل مطلقاً». (الخطيب القزويني، التخليص، د.ت: ٣٢٣-٣٢٤؛ الإيضاح، ١٤٠٣: ١٤٠٣/٢) وقال البيومي: «الجمهور على أن المجاز المركب والتمثيل، والاستعارة التمثيلية، والتمثيل على حدّ الاستعارة: ألفاظ مترادفة على معنى واحد». (البيومي، ١٩٧٢م: ١٩٤) وهذا يدلّ على أن الاستعارة التمثيلية لها عدّة أسماء مترادفة، ولكن المختار عندهم هو اسم "التمثيل". ومن شواهد الاستعارة التمثيلية في الكلام النبوي ما يلي:

- ١- قال رسول الله (ص): «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٤٣٨/١) قوله: «خَنْدَقًا» هو استعارة تمثيلية عن الحاجز والمانع، شبه الصوم بالحصن وجعل له خندقاً حاجزاً بينه وبين النار التي شبهت بالعدو، ثم شبه الخندق في بُعد غوره بما بين السماء والأرض. استدلّ النبي (ص) بالخندق للإشارة إلى البون البعيد بين الأمرين خاصة إذا كان الخندق ذا بعد كبعد الأرض من السماء. والاستعارة هذه تصور لوحة جميلة لعرض المسافة الشاسعة التي توجد بين الصائم والنار يوم القيامة، والأمر هذا إشارة إلى مكانة الصوم عند الله.
- ٢- قال رسول الله (ص): «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا. فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِيثِي. وَإِنِّي أَنَا التَّنْذِيرُ الْعُرْيَانُ! فَالْتَّجَاءَ النَّجَاءَ». (المصدر نفسه، ١٤٠٥هـ: ٥٣/١)

قال الزمخشري: «التنذير العريان» مثل سائر يضرب لشدة الأمر، ودنو المحذور، وبراءة المحذر عن التهمة. وأصله: أن الرجل إذا رأى العدو قد هجم على قومه، وأراد أن يفاجئهم، وكان يخشى لحوقهم قبل لحوقه، تجرد من ثوبه، وجعله على رأس خشبية، وصاح ليحذوا حذوهم، ويستعدوا قبل لحوقهم». (الزمخشري؛ ١٩٧١م: ٤١٢/٢) نرى أن من صور الاستعارة التمثيلية ما أصبحت مثلاً سائراً بين الناس.

- نَبَّهَ قَبْلَ نَهَايَةِ هَذَا الْبَحْثِ إِلَى أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ أَكْثَرَ مِنْ وَجْهِ لِبَعْضِ الْاسْتِعَارَاتِ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، مِنْهَا:

١- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالْحَجُّ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٠/١)

قال صاحب التبيان: «لا تخلو هذه الخمس من أن تكون قواعد البيت أو أعمدة الخبَاء، و ليس الأوّل لكون القواعد على أربع، فيتعين الثاني، وينصره ما جاء في حديث: «وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ». (المصدر نفسه: ١٦/١) مثّلت حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خبَاء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها الذي تدور عليه الأركان هو: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وبقيت شعب الإيمان كالأوتاد للخباء.

وهذا على أن تكون الاستعارة تمثيلية، لأنها وقعت في حالي المثل والمثل به، ويجوز أن تكون الاستعارة تبعية، بأن تقدر الاستعارة في (بُني) والقرينة في (الإسلام)، شبه ثبات الإسلام و استقامته على هذه الأركان الخمسة ببناء الخبَاء على الأعمدة الخمسة، ثم تسري الاستعارة من المصدر إلى الفعل، وأن تكون مكنية بأن تكون الاستعارة في (الإسلام)، والقرينة في (بُني) على التخيل، بأن يكون شبه الإسلام بالبيت، ثم خيل كأنه بيت على المبالغة، ثم أطلق الإسلام على ذلك المخيل، ثم خيل له ما يلزم الخبَاء المشبه به من البناء ثم أثبت له ما هو لازم البيت من البناء على الاستعارة التخيلية، ثم نسبت إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة.

٢- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) لِأَبِي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ! أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «الْمُوَالَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ». (المصدر نفسه: ٣/١٣٩٦)

«قوله: «أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟» هي جمع عروة، وهي ما تجعل في الأحمال والرواحل، ويجعل بين كل عروتين شظاظ،<sup>٢</sup> فيحمل على البعير، وهي تجوز أن تكون استعارة مصرحة تحقيقية.<sup>٣</sup>

شبه الموالاتة والحب في الله، والبغض في الله، بعروة الراحلة في استيثاقها وإحكامها، فحذف المشبه، وأتى بالمشبه به، مضافاً إلى الإيمان ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة، وأن تكون مكنية بأن يكون المشبه الإيمان والمشبه به الأحمال، ويتوهم

الإيمان على سبيل التخيلية من لوازم المشبه به، وقرينتها الإضافة إليه، ويجوز أن تكون تمثيلية مثل المعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده ويتيقن به.

### النتيجة

البحث عن الصور الاستعارية في كلام أفصح من نطق بالضاد واستخراج شواهده والبحث عن المعاني المطوية في طبّات كلامه(ص) أمر ليس سهل المنال فقمنا به على قدر استطاعتنا. وما وصلنا إليه في البحث المتقدم هو:

١- أن النبي(ص) استخدم هذا الأسلوب لتقريب كلامه إلى ذهن المستمعين وإبلاغ رسالته إليهم. وكان يستخدم الاستعارة كطريق من الطرق البيانية نظراً إلى نفاذها في المتلقين وشدة تأثيرها ودوامها عندهم.

٢- وجدنا أن النبي(ص) كان يستخدم الصور الاستعارية المختلفة حسب حال المخاطبين. وهذا ما يؤدي إلى أن يقع الكلام في موقعه.

٣- يبدو أن النبي(ص) يستخدم الصور البلاغية المتعددة في آنٍ واحد لإيفاد المعنى، وهذا ما يؤدي إلى عرض الصور المتعددة الجوانب في حديث واحد، كما شاهدنا في أمثلة عدّة نقلناها في البحث.

٤- لغة الاستعارة المستخدمة من قبل النبي(ص) هي سهلة، والألفاظ رغم سهولتها الظاهرية تنطوي على المعاني البعيدة والتي لا يمكن استخراجها وكشفها إلا بعد الغوص فيها والتدقق في زواياها.

٥- كانت استعارات الرسول(ص) موظفة للوعظ والإرشاد والتشويق لقبول ذلك.

### الهوامش

- ١- الدسع: الدفع، المعجم الوسيط، مادة (دسع).
- ٢- في (الصحاح) مادة شظظ: الشظاظ العود الذي يدخل في عروه الجوّالِق . و في (الصحاح) فصل (الجيم) من باب (القاف): (الجوالِق: بكسر الجيم و اللام، و بضم الجيم وفتح اللام وكسرهما، وعاء).
- ٣- الاستعارة التحقيقية هي التي تناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه و يشار إليه إشارة حسية أو عقلية. (الإيضاح: ٢٠٥)

## المصادر

### القرآن الكريم

ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ت: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، الفجالة، القاهرة، دار نفضة مصر، د.ت.

\_\_\_\_\_، النهاية في غريب الحديث و الأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي، و محمود محمد الطناحي، لا مكان، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٣ هـ.

ابن كثير، البداية و النهاية، بيروت، لبنان، دارالكتب، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥ م.

ابن منظور الافريقي، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، لا مكان، دار صادر، ١٣٨٨ هـ.

أبو زيد البدوي، عبدالرزاق، في علم البيان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ م.

أبو العدوس، يوسف، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية و الجمالية، المملكة الأردنية، عمان، منشورات الأهلية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م.

أبو موسى، محمد حسنين، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية، لا مكان، دار الفكر العربي، د.ت.

امرؤ القيس، الديوان، شرح عبدالرحمن المصطاوي، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥ هـ.

بدر الدين، محمد بن جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك، كتاب المصباح في علم المعاني و البيان و البديع، لا مكان، المطبعة الخيرية، الطبعة الأولى، ١٣٤١ هـ.

البغوي، حسين بن مسعود بن محمد الفراء، شرح السنة، ت: شعيب الأرنؤوط و زهير الشاويش، لا مكان، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ.

البيومي، محمد رجب، البيان النبوي، بيروت، دارالوفاء للطباعة و النشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ.

البيومي، يوسف، علم البيان، جامعة الأزهر، مطبعة عابدين بالقاهرة، ١٩٧٢ م.

التفتازاني، سعد الدين، شرح المختصر، طهران، منشورات اسماعيليان، مطبعة سرور، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.

التفتازاني، المغربي، السبكي، القزويني، الدسوقي، شروح التلخيص، مصر، مطبعة عيسى ألبابي و شركائه، د.ت.

الجارم، علي و أمين، مصطفى، البلاغة الواضحة، مصر، مطابع دارالمعارف، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ.

الجرجاني، عبدالقاهر، أسرار البلاغة، ت: هـ. ريتز، بيروت، دارالمسيرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ.

\_\_\_\_\_، دلائل الإعجاز، ت: السيد محمد رشيد رضا، لا مكان، دارالمعرفة، ١٣٩٨ هـ.

الجرجاني، محمد بن علي، الإشارات و التنبهات في علم البلاغة، ت: عبدالقادر حسين، الفجالة، القاهرة، دار نفضة مصر، ١٩٨٢ م.

الجندي، علي، فن التشبيه، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٦ هـ.

- الخطيب التبريزي، محمد بن عبدالله، مشكاة المصابيح، ت: محمدناصر الدين الألباني، لا مكان، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ.
- الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ت: د. عبدالمنعم خفاجي، بيروت، دارالكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣ هـ.
- \_\_\_\_\_، التلخيص في علوم البلاغة، ت: عبدالرحمن البرقوقي، لا مكان، دار الفكر العربي، دون تاريخ.
- الرازي، فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ت: د. إبراهيم السامرائي، و محمد بركات حمدي أبو علي، الأردن، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٥ م.
- الرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت، المكتبة العلمية، دون تاريخ.
- الزحششري، جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، ت: عبدالرحيم محمود، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٢ هـ.
- \_\_\_\_\_، الفائق في غريب الحديث، ت: علي محمد الجاوي، لا مكان، مصر، نشر عيسى البابي الحلبي و شركائه، الطبعة الثانية، ١٩٧١ م.
- \_\_\_\_\_، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ت: مصطفى حسين أحمد، بيروت، دارالكتاب العربي، ١٤٠٦ هـ.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد، مفتاح العلوم، بيروت، المكتبة العلمية الجديدة، د. ت سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، ت: عبدالسلام هارون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣ م.
- السيوطي، جلال الدين محمد، الإتقان في علوم القرآن، القاهرة، شركة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨ هـ.
- \_\_\_\_\_، شرح عقود الجمان في المعاني و البيان، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، ١٣٥٨ هـ.
- الشريف الرضي، محمد بن حسين، المعجازات النبوية، ت: طه عبد الرؤوف سعد، مصر، شركة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٩١ هـ.
- الصباغ، محمد، التصوير الفتي في الحديث النبوي، لا مكان، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م.
- طبانة، بدوي؛ علم البيان، بيروت، دار الثقافة، ١٤٠١ هـ.
- \_\_\_\_\_، معجم البلاغة العربية، جدة، دار المنارة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ.
- الطبيبي، الحسين بن عبدالله، الخلاصة في أصول الحديث، ت: صبحي السامرائي، لا مكان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

- \_\_\_\_\_، شرح الطَّبِيِّ على مشكاة المصابيح المسمّى بالكاشف عن حقائق السنن، تحقيق عبدالحمد هندواوي، الطبعة الثانية، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥ هـ.
- عبد العزيز بن عبد السلام، عز الدين، كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، بيروت، دارالمعرفة، ١٣١٣ هـ.
- عتيق، عبدالعزيز، علم البيان، لا مكان، دار النهضة العربية، ١٩٧٤ م.
- العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.
- العماري، علي، البيان، القاهرة، مكتبة الجامعة الأزهرية، د.ت.
- القاري، علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، باكستان، المكتبة الإمدادية، ١٣٩٠ هـ.
- القيرواني، الحسن ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر و نغده، ت: مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م.
- الكاندهلوي، محمد إدريس؛ التعليق الصريح على مشكاة المصابيح، مكة المكرمة، مكتبة مدينة العلم، الطبعة الثانية، ١٣٥٤ هـ.
- المراغي، أحمد مصطفى، علوم البلاغة (البيان- المعاني- البديع)، بيروت، دارالقلم، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ م.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه و نظمه لفييف من المستشرقين، و نشره الدكتور أ.ي. و نسنك، استانبول، دار الدعوة، ١٩٨٦ م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، و حامد عبد القادر، و محمد علي النجار، مراجعة إبراهيم أنيس، و عبد الحلیم منتصر، و عطية الصوالحي، و محمد خلف الله أحمد، قطر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٥ م.
- الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.
- الهوري، غريب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ م.